الفصل الرابع

كريت تحت الحكم العثمانى الأول (١٦٦٩ — ١٨٢١)

استيلاء العثمانيين على كريت :

لم يكد القرن السابع عشر يطلع على الدنيا حتى كان ظل البنادقة قد انحسر عن سائر ما كان تحته من أملاك الأمبراطورية ، ولم يبق لها غير كريت وبعض جزائر الأرخبيل . فاشتد حرص البنادقة عليها وبدا لهم أن الخطر على مركزهم فى الجزيرة يتمثل فى نشاط القراصنة من الترك والبربر فى بحر الأدرياتيك ، وكان العثمانيون يعتمدون على نشاط أولئك القراصنة ، ويرون فيه درعاً واقية يدرأون بها شر قراصنة الغرب فى مصالحهم فى الشرق ، وأنه أولى بالبنادقة أن يلزموا قراصنتهم من المسيحيين بالكف عن العدوان على مصالح العثمانيين فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، الذين أثاروا سخط العثمانيين حتى تصدى منهم فرسان مالطة لإحدى سفائن بنى عثمان ، وكانت تحمل حجاجهم إلى بيت الله الحرام ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ،وساقوا من بقى منهم أسارى وسبايا ، فلجأوا بهم وبما غنموا من أرزاقهم إلى ثغر « كاليزمين » Kalismene على ساحل كريت الجنوبى وكان من بين من سبوا من حجاج العثمانيين مرضع ابن السلطان العثمانى فاشتد غضبه وصمم على الانتقام[1] ولم تكن هذه أول مرة يفكر فيها العثمانيون فى الأخذ بالثأر عن طريق الاستيلاء على كريت ، فقد كانت محاولتهم الأولى عندما وجهوا أسطولهم تحت إمرة كنعان باشا ، فتصدى له أسطول البنادقة بقيادة أمير البحر « موتشنجو » Mocenigo ، وظفر به عند مدخل الدردنيل ، حيث فقد العثمانيون سبعين سفينة منها ما ابتلعه البحر ومنها ما وقع بأيدى البنادقة .

---

(١) Finlay, Vol. V, pp. 109-110

وكان لهذه الهزيمة أثرها الفعال فى إيقاظ الشعور القومى عند الأتراك وشعورهم بمرارة الهزيمة فذكروا ماضيهم وما حققت لهم قواتهم البحرية من نصر وأكسبتهم بين شعوب العالم من مجد ، فكان حافزاً لهم على تحقيق أعظم انتصاراتهم البحرية وآخرها فى تاريخهم البحرى وهو الاستيلاء على كريت .

"The conquest of Crete was the last, the most important, and the most glorious naval conquest of the Othomans"(١)

ذلك أنه عند ما صح عزم العثمانيين على الانتقام مدوا أبصارهم إلى كريت . بعد ما استعصت عليهم مالطة فاستعدوا لغزوها ، وأرادوا تضليل البنادقة فإذا أعوانهم قاصدون إلى مالطة ومع أن البنادقة لم يصدقوا ما أذاعه العثمانيون فإنهم حرصوا على أن يتقوا الحرب مهما كلفهم ذلك من تضحية(٢) .

ولم تكن الحال فى الجزيرة لتطمئنهم على الاحتفاظ بها ، وتمكين سلطانهم فيها ، فهم يدركون ما كان يضمره لهم أهلها من بغض ، ونبلاء البنادقة فى الجزيرة لم يكن يعنيهم أن يدافعوا عنها بسيوفهم ما داموا ينعمون بما كان لهم فيها من امتيازات تضمن لهم حياة الدعة والعيش الخفيض وكذلك كان موقف الموسرين من الوطنيين . يضاف إلى ذلك ما كان يضمره أكثر الوطنيين من مقت شديد لرجال الدين . وإزاء هذا كله شعر البنادقة بما كان يسود أهل الجزيرة من روح التذمر المشفوع بالتراخى وعدم المبالاة ، فأخذوا فى تدعيم أسطولهم

---

(١) *Ibid.*, Vol. V, p. 103.

وتتمثل هذه اليقظة القومية فى أحد موظفى البحرية العثمانية ويدعى « حاجى خليفة » Hadji Khalifa

— وهو صاحب (كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون) .

— عندما يضع مؤلفاً مفصلا عن تاريخ البحرية العثمانية ، وعن أعمالها الباهرة وبطولة رجالها وشجاعتهم النادرة ، ولكن جاء أجله ، فات قبل أن يرى أثر كتابه هذا على مواطنيه وكيف صمدوا لقتال المقاومين من قوات البنادقة فى حصار قندية حتى هزموا قائدهم الباسل « موروسينى » Morosini ووضعوا آخر لبنة فى قبر البحرية البندقية ذات الشهرة الواسعة .

(٢) *Ibid.*, Vol. V, p. 110.

الراسى فى مياه الجزيرة على أن ذلك لم يغن من الأمر شيئاً . فعجزوا عن رد أسطول العثمانيين عن « خانيه » التى سقطت فى أيديهم عام ١٦٤٥ ، فأخذوها فى غير عسر ، وأخذوا من ورائها « رسمو » ولم يلبثوا أن ضربوا الحصار على قنديه عاصمة الجزيرة، بل لم يلبث الصراع بين الدولتين حتى امتد من كريت إلى جهات أخرى . واتصلت الحرب بينهما قرابة ربع قرن(١) . وعلى الرغم مما امتازت به قوات البنادقة البحرية من تفوق وشهرة فإنها عجزت عن أن تحول دون وصول الإمدادات والمؤن إلى قوات العثمانيين المرابطة فى الجزيرة ، والتى استطاعت أن تكسب رضا المواطنين بفضل تشجيعهم على الزراعة ، والحصول منهم على تموين الجيش بأسعار حرة، فسدوا بذلك ثغرة خطيرة فى كيان الجيش ، وضمنوا له البقاء عندما نجح البنادقة أشهراً فى قطع الصلة بين الجيش والدولة . ولولا ذلك لتبدل الحال غير الحال ، ولما استطاع جيش العثمانيين أن يبقى فى الجزيرة(٢) .

واشتدت رغبة العثمانيين فى الاستيلاء على قنديه ، وصدق عزمهم على ذلك حين أعلن الصدر الأعظم أحمد « كبريللى » أن العثمانين لا بد أن يأخذوا قنديه ولو اقتضاهم ذلك حرباً مداها مائة عام(٣) .

---

(١) و(٢) أنظر شارل ديل ، المرجع السابق ذكره ، ص ٢١١ — ٢١٣ .

(٣) شارل ديل ، ص ٢١٣ .

والواقع أن الاستيلاء على قندية لم يكن بالأمر اليسير ، فهذا بابا روما ، ومن ورائه كافة الدول الكاثوليكية يعتبرون محاولة العثمانيين الاستيلاء على الجزيرة من حروب الصليب ، فتتكتل هذه الدول لبذل أقصى ما تستطيع من عون لمساعدة البنادقة ، فتبعث فرنسا بحملة قوامها ٤٠٠٠ جندى ، ويتبعها لويس الرابع عشر بأخرى تحت أمرة أشهر قواد فرنسا ، وينجح البنادقة بمعاونة هذه الحملات فى صد حملات الانكشارية غير أن القواد الفرنسيين لم يلبثوا أن اختلفوا مع قائد البنادقة « موروسينى » فعادوا إلى فرنسا . ويلح البابا مرة أخرى على فرنسا ، فتبعث بنجدة قوامها ٨٠٠٠ جندى ، أبحرت من ميناء طولون فى ٦ من يونية ١٦٦٩ بقيادة دوق « دى بوفور » de Beaufort فيبلغ الشاطىء من أمام قندية فى ١٩ من يونية ، وتنضم إلى قوات البنادقة ، ويتقدم جميعهم فى أقسام أربعة ، فيداهمون العثمانيين ليلا فى مراكزهم ويضطرونهم إلى التراجع ، ومايكادون يفعلون حتى ينفجرا البارود من مائة وأربعة وثلاثين برميلا ، فتضطرب الذلك صفوف أعدائهم ويعجزون عن إعادة النظام ، ويهلك فرق من رجالهم ومن بينهم قائدهم الدوق ثم ينتهى الأمر بعودتهم إلى فرنسا (أنظر :

La Roche, *La Crète Ancienne et Moderne*, pp. 79-94. See also Softazadé, pp. 6-8.

انهزام البنادقة واستيلاء الأتراك على الجزيرة :

ويتولى الصدر الأعظم « كبريللى » قيادة الجيش المحاصر لقندية ، فيضيق الخناق على من فيها فلا يجد البنادقة مفراً من التسليم ، ويعقد قائدهم « موروسينى » معاهدة التسليم مع الصدر الأعظم فى ٢٧ سبتمبر ١٦٦٩ ، فيسلمه مفاتيح قنديه ، ويتنازل البنادقة عن السيادة على الجزيرة ، على أن يحتفظوا بقلاع ثلاث عند الشاطىء الشمالى لكريت وهى « كرابوزا » Carabuse « وسودا » Suda « وسبينالونجا » Spinalonga (١) .

حالة الجزيرة إبان استيلاء العثمانيين عليها :

وهكذا تسقط الجزيرة فى أيدى العثمانيين بعد حروب دامت خمسة وعشرين عاماً ، فقد فيها المسيحيون ٣٩ ألفاً من الجنود ، وضحى فيها العثمانيون بثمانية ومائة ألف . هذا فضلاً عما أنفقت البندقية من مال فى سبيل احتفاظها بالجزيرة ورد العثمانيين عنها ، فقد بلغ ما أنفقته ١٢٠ مليوناً من الدوكات (Ducats) ، كما بلغت ديونها ٦٤٫٠٠٠ . ومع ذلك فلا هى احتفظت بالجزيرة ولا هى أبقت على حياة قائدها « مورسينى » الذى اتهمته بالرشوة من لدن قائد الأعداء « كبريالى » فأدانته بالخيانة ، ثم حكمت عليه بالموت(٢) .

ولم يقع العثمانيون فى قندية على غير خرائب مهجورة ليس فيها سوى إثنين من قساوسة اليونان وثلاثة من اليهود وشيخ من المساكين . وكان عدد المواطنين فى الجزيرة قد نقص نقصاً بيناً فلم يتجاوز وايومئذ ٢٢٫٠٠٠(٣) على حين كان عددهم

---

(١) Finlay, Vol. V, p. 112, *See* also Softazadé, *op.cit.*, p. 8.

(٢) La Roche, *La Crète Ancienne et Moderne*, pp. 95-96.
على أن Softazadé ، استناداً على المؤرخ Hammer يقدر مافقده البنادقة من الضحايا فى هذه الحروب بحوالى ٥٠٫٠٠٠ بينما ضحى العثمانيون بأكثر من ١٠٠٫٠٠٠ (Softazadé, p. 8).

(٣) شارل ديل ، ص ٢١٤ .

إبان كان حكم البنادقة يتراوح بين ٥٠٠ر٠٠٠ و٦٠٠ر٠٠٠ . ومرجع ذلك إلى نتائج الحروب الطويلة التى جرت بين الوطنيين والمستعمرين فى مدى المائة والخمسين عاماً الأولى من تاريخ الاحتلال . فقد خسر الوطنيون من الرجال أكثر مما خسروا أيام حرب الاستقلال اليونانية(١) .

تسامح العثمانيين الدينى :

لم يسلك العثمانيون إزاء سكان الجزيرة مسلك البنادقة ، فلم يكرهوا أحداً فى الدين ، ولذلك لم يلقوا بين أهل الجزيرة من يقاوم غزوهم بل اطمأنوا إليهم ، ووجدوا فى ظلهم خلاصاً من البنادقة ، فباتوا أحراراً فى عقائدهم . واعتنق الإسلام كثير منهم كما فعل أمثالهم من أهل ألبانيا والبوسنة . ولم يكن تحولهم إلى الإسلام عن عقيدة ولكنهم بغية التمتع بما كان للمسلمين من امتيازات كإعفاء من الخراج، الانخراط فى سلك الجيش لإمكان الدفاع عن أملاكهم(٢).

وليس أدل على ذلك من ارتدادهم إلى المسيحية فى أول فرصة سنحت لقتال المسلمين بغية تحرير الجزيرة من سلطانهم ، مضحين يومئذ بكل مرتخص وغال فى سبيل الدفاع عن عقيدتهم ، تتزعمهم أسر غنية كانت اعتنقت الإسلام إبان الحكم العثمانى . وفى مقدمتها أسرة « كرموليدس » Kurmulidhes التى كانت تسيطر على معظم البقاع الخصبة من سهل « مسارا » . كانوا على الرغم من إعلان إسلامهم يدينون المسيحية ، ويمارسون طقوسها فى الخفاء ، ويعمدون أطفالهم بأسماء مسيحية ، ويخفون ذلك بما يعلنون لهم من أسماء المسلمين ، واستغلوا مسلكهم هذا فى كسب رضاء الحكام العثمانيين ، ولحماية مصالحهم(٣) .

---

(١) Pashley, Vol. II, p. 326.

(٢) Softazadé, pp. 9-10.

(٣) Pashley, Vol. I, pp. 105-107; Perrot, *L'Ile de Crète*, pp. 215-217.

التقسيم الإدارى الجديد :

قسم العثمانيون الجزيرة إدارات أربع ، وجعلوا على كل منها واحداً من الباشوات بلقب سنجق ، ثم اختصروها إلى ثلاثة بعد إلغاء إدارة « لاسبتى » (إقليم لاشيد) . وكان كل سنجق يستقل بإدارته عن زملائه استقلالاً تاماً . فأقام أحدهم فى خانيـة بغرب الجزيرة ، وأقام الثانى فى رسمو إلى الشرق من خانية ، وأقام الثالث فى قنـدية التى كانت تسمى يومئذ « بالحصن الـكبير » Megalo Castro

وبدأ السناجق الثلاثة ينافس بعضهم بعضاً . فما يكاد أحدهم يشعر لنفسه بشىء من قوة ، حتى يبادر بالسعى فى بسط سلطانه على صاحبيه(١) وكان من نتيجة هذا التنافس أن كثر الدس بين رجال الإدارة ، فأخذ بعضهم يكيد لبعض ، وبات من اليسير أن يفقد السنجق منصبه تنفيذاً لأمر السلطان ، يصدره عن هوى مبعثه الدس والـكيـد ، أو تحقيقاً لرغبات الانـكشارية وكان أمرهم قد عظم فى الجزيرة . ولشد ما آذى تغيير السناجق أهل الجزيرة ، فلا يكاد السنجق الجديد يبدأ فى ممارسـة شئون منصبه حتى يشتط فى فرض الضرائب على السكان(٢) . ولم يعف من ذلك سوى سـكان إسفاكيا ذلك الإقليم الذى سـلم من حكم السناجق لخلوه من عناصر العثمانيين وجعل زمام الإدارة فيها بين أيدى زعمائها من الوطنيين(٣) .

وكانت كل إدارة من الإدارات الثلاث تتكون من إقطاعيات منها الـكبير ومنها الصغير فشمل إقليم « قندية » ثمان إقطاعيات كبرى وألف وأربعمائة من

---

(١) Perrot, *op.cit.*, p. 153 ; Dodwell, *The Founder of Modern Egypt*, p. 243.

(٢) *Diplomatic Documents Concerning Affairs of Egypt, Campells' notes on the Island of Candia*, p. 78.

(٣) Finlay, Vol VI p. 4 ; Dodwell, p. 243.

الصغرى ، وشمل إقليم « خانية » خمساً من الكبرى ، وثمانمائة من الصغرى ، كما اشتمل إقليم « رمـو » على أربع من الكبرى ، وثلاثمائة وخمس من الصغرى .

وكان على ملتزمى الإقطاعيات أن يمدوا السلطان فى زمن الحرب بإعداد من الرجال تختلف باختلاف مساحتها . وكانت الإقطاعيات جميعاً تتكون من الأراضى التى كان البنادقة قد أقطعوها فى أيامهم نبلاءهم ورجال الدين اللاتين ثم من الأراضى العامة ، وزعت جميعاً بين طوائف البكوات والأغوات من أهل الأناضول والروملى الذين أسهموا فى حروب الاستيلاء على الجزيرة ، وأحبوا الإقامة فيها .

يضاف إلى ما تقدم أن المغامرين من فرق الانكشارية والصباهية ما كادوا يعلمون بنبأ إجلاء البنادقة عن الجزيرة ووقوعها تحت سلطان العثمانيين حتى راحوا يطلبون من السلطان أن يمنحهم حق العيش والتملك فى الجزيرة المفتوحة ، وتم لهم ما أرادوا حين ساقهم السلطان إليها . فما لبثوا أن انتشروا فى أنحائها ، يحتلون المزارع القريبة من المدن والثغور ، ويثبتون أقدامهم فيها وفيما منحهم السلطان من بقاع ويضعون حدودها وفق أهوائهم وأطماعهم ولو كان فى ذلك اعتداء على حقوق الوطنيين ، الذين نالهم من ذلك أذى كبير وخابت آمالهم بما صوروا لأنفسهم من لين العيش فى ظل العثمانيين ، وباتوا يندمون على ما بذلوا لهم من عون على فتح الجزيرة واستخلاصها من أيدى البنادقة حينما بان لهم أن هم سناجق الجزيرة هو جمع الثروات بكافة الوسائل قبل أن يدركهم غضب السلطان فيقصيهم عن مناصبهم إذ كانوا يشعرون بأنهم مهددون بالعزل .

فساد الإدارة وأثر الانكشارية على ذلك :

ولم يقف الفساد عند حد ما ذكرنا ، ذلك لأن الانكشارية قد استهانوا

بأوامر السلطان ، ولم يروا له من القوة والبأس ما تعودوا أن يروا من قبل ، فما أكثر ماخرجوا عن طاعة من يعينهم السلطان من سناجق على الجزيرة ، والتاريخ يذكر لهم ثورتين عارمتين أطاحت أولاهما فى عام ١٦٨٨ بذى الفقار باشا سنجق « قندية » وأطاحت الثانيـة ١٧٢٨ بدفتر دار المدينة نفسها عثمان افندى فلقيا حتفهما(١) وفى هـذين الحادثين وأمثالهما ما يدل على فساد الحكم فى الجزيرة والفوضى التى سادت كافة نواحى الحياة فيها ، وأنواع الإداريين والجنود الذين عهدت إليهم الدولة العثمانية بتنظيم إدارة الجزيرة ورعاية مصالحها وتأمين سلامتها(٢) .

وتمادى الانكشاريون فى عبثهم وعدوانهم حتى ركبوا الشطط ، ذلك لأنهم لم يجدوا بالجزيرة من يحاسبهم على عبثهم أو يأخذهم بجرائمهم ، وإنما هم يحاكمون بعضهم بعضاً ، ويبرئون بعضهم بعضاً ، ولا يسلمون من يخالف منهم إلى سلطان يحاسبه(٣) .

وزاد فساد الأمن فى الجزيرة ، وتعرض المسيحيون لأبشع ألوان الاعتداء على أملاكهم وأرواحهم وأعراضهم حتى قيل أن العبث والاستهتار بلغ بالجند العثمانيين حداً لا يتورعون عنده من اختطاف العرائس ليالى زفافهم ، واغتصاب الزوجات من أزواجهن(٤) .

---

(١) Perrot, pp. 153-154 ; La roche, p. 107.

(٢) La Roche, pp. 105-106.

(٣) يشهد بذلك مافعله محمد على عندما عهد إليه السلطان بقمع ثورة الجزيرة ، حينما كتب إلى رسوله وقائد قواته فى الجزيرة مصطفى بك يأمره بوقف هذا العبث والضرب على أيدى العابثين من الإنكشارية جنوداً وضباطاً وأخذهم بالصارم العنيف ، ومعاقبتهم بالموت إذا ما اقترفوا من الآثام مايقتضى ذلك ولم يتوان مصطفى بك فى إصدار تلك الأوامر ، وإبلاغها سنجق قندية الذى أذاعها على الانكشارية E. Driault, *l'Expédition de la Crête et de la Morée (1823-1828)*, Cairo, 1930, p. 124 ; St. Sauveur au Baron de Damas, *La Canée, 17 Février 1826.*

(٤) Perrot, pp. 162-170.

ولم يكن من السهل إزاء اختلال الأمن وفساده على نحو ما قدمنا أن تزدهر فى الجزيرة زراعة ، أو تروج تجارة . وكيف تروج التجارة بين أيدى السناجقة وهم وحدهم أصحاب الحق فى تصدير الزيت وهو أهم محاصيل الجزيرة ، وسلعة تجارتها الأولى(١) فلطالما غص مرفأ خانية بسفائن التجارة الأوروبية ، فتقف عاجزة عن أخذ شحنها من الزيت وتبوء بالخسارة ، فلا هى حصلت على الزيت ، ولا هى وفرت نفقات رحلتها إلى الجزيرة . وجاء الأوربيون بشكواهم إلى حكومة القسطنطينية ولم تملك هذه غير إصدار الأوامر بعزل السناجق واستبدال غيرهم بهم فكانوا على الدوام أسوأ خلف لأسوأ سلف (٢) .

فساد القضاء :

وتمادى العثمانيون فى غيهم مهملين شئون الجزيرة ، فلا القضاء لديهم بمنصف أهلها المسيحيين ، ولا هم أنشأوا لهم محاكم خاصة تنظر فى أحوالهم الشخصية بل ترك القضاء فى يد المفتى بصفته الزعيم الدينى ، يتولى المحافظة على قواعد الدين ويرعى حقوق القصر وينفذ قواعد الإرث ، ويفتى فى أمر الزواج والطلاق ، وله حق النظر فى كافة الدعاوى القضائية ، ومهما تكن محاكم المسلمين فى الجزيرة حريصة على العدل ، ومهما يكن حظ قضاتها من الاستقامة فإن أحكامها لا يمكن أن تكون صالحة فى نظر المسيحيين من أهل الجزيرة ، ولا يمكن أن تطمئن قلوبهم إلى سلامة إجراءاتها . يضاف إلى ذلك أن سيرة العثمانيين فى إدارة الجزيرة قد كانت فاسدة أشد الفساد ، وليس ببعيد على الذين ساءت إدارتهم أن تسوء أحكامهم . كل أولئك قد نفر النصارى من محاكم المسلمين وصدهم عنها مؤثرين

---

(١) كان السناجقة يدعون أنهم مضطرون إلى تقييد التصدير لحاجة القسطنطينية من زيت الجزيرة وحاجة الجزيرة نفسها لإنهاض صناعة الصابون وواقع الأمر أن بغيتهم كانت الحصول على المال من فرض الرسوم الجمركية المالية Fornetty au Ministre, La Canée, 15 Juillet, 1827 Aff. Etr. Carton de la Canée.

(٢) *Campbell's Repport*, pp. 78-79.

الضيم والهضم(١) . على أن حالهم كانت خليقة بالرثاء ، جديرة بالشكوى لما أثقل ما كانوا ملزمين بدفعه من مختلف الضرائب . فمن بلغ منهم السادسة عشرة من عمره ألزم بدفع ضريبة الرأس ، وقدرها ما يوازى سبعة فرنكات ، ومن ملك منهم أرضاً فعليه أن يؤدى للحكومة مقدار السبع من إيرادها ، وعليهم فوق ذلك أن يؤدوا للكنيسة قدراً معيناً من المال و بعض الضرائب العينية من قمح وسمن وزيت ، كما كانوا يؤدون ضريبة الزواج ، كل ذلك قد أثقل كواهلهم وضيق عليهم سبل العيش فى الجزيرة(٢) .

قصر نظر العثمانيين وعجزهم عن إصلاح الأمور :

كان من جراء تصرف العثمانيين فى الجزيرة ، وطمعهم فى الكسب العاجل والحرص على اتباع شهواتهم النهمة على حساب الوطنيين وعلى حساب مصالح دولتهم التى ضحت بالرجال والمال والوقت فى سبيل الاستيلاء على الجزيرة لتأمين سلامتها من عدوان الأوربيين — أن فسدت أمور الجزيرة بين أيديهم فساداً تاماً ، فبات أهلها فى هم دائم وبؤس مقيم . وأثير الأوربيون أنفسهم حينما تعرضت مصالحهم للخطر ، وباتوا يخشون على أرواح رعاياهم من سكان الجزيرة(٣) . وبخاصة عندما ترك الإداريون لرعاياهم الترك من سكان الجزيرة الحبل على الغارب يمشون فى الأرض فساداً ، ويقترفون من الآثام والجرائم ما يشاءون ، فلا حساب ولا جزاء ولا عقاب ، مما عرض حياة المسيحيين فى الجزيرة للخطر ، فأخذوا يهاجرون ديارهم ، ولما بلغت الأمور من الفساد أقصى حدودها وكادت تجاوزها ، أخذ السلطان يفكر فى تدارك الأمور ، وهاله استفحال طغيان الانكشارية الذين استطاعوا عصيانه فعزلوا من أوليائه السناجق أربعة وردوهم إلى القسطنطينية تقول

---

(١) La Roche, p. 102.

(٢) *Ibid.*, pp. 101-102.

(٣) *Campbell's Report*, pp. 78-79.

لما بلغت الأمور هـذا الحد من العناد عين السلطان فى ١٨١٣ واحداً من رجاله المشهورين بالصرامة . وبقال له حاجى عثمان باشـا فلم يكد يبلغها حتى تبين أن مهمته شاقة عسيرة وأنه لا يملك من القوة فى الجزيرة ما يمكنه من انجاز مهمته ، فالبكوات الأتراك والأغوات والضباط كانوا زعماء العبث وعصابة الفساد ، وكانوا جبهة قوية تتحدى الباشا ، وتستطيع عزله كما عزل أسلافه ، ولم يكن قادراً على أن يستقدم من الألبان أو غيرهم من يعينونه على هدم تلك الجبهة ، إذ لو فعـل لتصدت له وحالت دون إنزال أولئك فى الجزيرة ، فقـد كانت بأيديهم كافة حصون الجزيرة وثغورها .

ولما ضاقت به السبل لجأ إلى النصارى من سكان الجزيرة ، فعاهد زعماءهم سرا على أن يخلصهم من شر الجند الأتراك ، وعليهم أن يعاونوه فى ذلك ، وأعطاهم السلاح يوزعونه على الوطنيين . ورحب النصارى بذلك وبيتوا نية الانتقام لأنفسهم ، واختار الباشا « خانية » لقلة من فيها من الترك وجعلها قاعدة ينفذ منها خطته ، ثم مكر بقومه فدعاهم إليها ، وأقام الأفراح حفاوة بمقدمهم ، واحتفالا بذلك الحادث ، وأنذر من يتخلف عن الاسـتجابة لدعوته بعقاب شديد — وقام كل من سنجق « رسمو » وسنجق « قنديه » بتنفيذ أوامر الباشا فبعثا بالمتخلفين إلى « خانية » حيث سفكت دماؤهم ، واسـتمرت المذابح فى « خانية » زهاء شهرين ، حتى بات أتراك الجزيرة فى رعب من سطوة هذا الباشا ، الذى ظن أن الفوز قد كتب له بعد الذى أحرز من نجاح القضاء على العابثين من الترك . فبالغ فى الاحتفال بنجاحه ، وبات أعداؤه يكيدون له عند السلطان حتى غضب عليه وأمر بقتله فعادت الحال إلى ما كانت عليه من فساد واضطراب . وآلت الجزيرة إلى يد أرستقراطية طاغية عابثة متغطرسة متعطشة لسفك الدماء[1] .

---

(١) ولقد كثرت حوادث القتل والتشريد والفتك بالأبرياء الوطنيين ، ويكفى أن نشير من ذلك إلى حادثة الكهف المعروفة ، وخلاصتها أن المدعو حسان باشا قد فر بجنده أواخر =

هنالك يفكر الوطنيون فى مصيرهم ، ويلتمسون الوسيلة للخلاص من هذا العذاب . فمنهم من ارتد عن دينه ، ومنهم من اعتصم بالجبال ، وأشهرهم أهل أسفاكية ، وكانوا دائماً بحكم طبيعة ديارهم ، وشدتهم فى استعمال السلاح وقدرتهم على الدفاع عن أنفسهم فى مأمن من عدوان الأتراك . وكان البنادقة يعرفون لهم ذلك ، فهادنوهم ساموهم ، وتركوا لهم حرية العيش فى الجزيرة لقاء ضريبة طفيفة ، واستخدموهم كثيراً ضد الترك(١) .

= عام ١٨٢٢ بقرية «مليدونى» Melidhoni وذلك فى طريقه من خانية إلى قندية فذعر الوطنيون العزل ، وفروا أمامه فلجأوا إلى كهف بجوار تلك القرية ، وكانوا كثرة من النساء والأطفال فظلوا بالكهف أياماً حتى اطمئنوا إلى رحيل الباشا بجنده فعادوا إلى ديارهم ويموت حسان فيخلفه من يدعى حسين بك ، ويمر بالقرية فيصاب أهلها بذعر شديد فيحملون أطفالهم ويسرقون أنعامهم وماشيتهم إلى الكهف المذكور فيقف لهم إلبك ببابه ويطلب إليهم أن يخرجوا إليه فيرفضون ثم يبعث إليهم برسول له فلا يعود ، فيعمد إلى باب الكهف فيسده بالأحجار والخشب ثم يصب عليه الزيت ويشعل فيه النار فيموت اللاجئون عن آخرهم . أنظر :
Pashley, Vol. I, pp. 127-130 ; Perrot, pp. 170-177

(١) أنظر ملحق (٣) عن إسفاكية فى نهاية الكتاب . Perrot, pp. 177-183.